

من علوم القرآن : معرفة عاداته

إعداد : محمد بن زعمية

مقدمة :

بسم الله والحمد لله والصلاة
والسلام على رسول الله :

خير من رأيته نبه على هذا العلم
من علوم القرآن هو العلامة التونسي
الضليع الشيخ محمد الطاهر بن
عاشور حيث قال في تفسيره (التحرير
والتنوير): (وللتنزيل اصطلاح وعادات،
وتعرض صاحب الكشاف إلى شيء
من عادات القرآن في متناثر كلامه في
تفسيره)1.

وقد حاولت من خلال هذا المبحث
أن أتبع جملة من هذا المتناثر من كلام
المفسرين كالزمخشري والبيضاوي
والألوسي وابن عاشور وغيرهم لأجمع
شتاتا من هذا المتناثر وأرتبه وأنسقه
من خلال جملة من المحاور :

أولا : فائدة معرفة هذا العلم

معرفة عادات القرآن تفيدنا من
عدة نواح :

1 - فبه نعرف الأولويات الشرعية،
لأننا إذا رأينا عادة القرآن في التركيز
والتأكيد على أمر من الأمور علمنا أهمية
هذا الأمر، وأنه على رأس الأولويات في
ديننا، ذلك أن شعب الإيمان درجات في
سلم، فمنها ما هو في أعلى السلم، ومنها
ما هو أدنى، ومنها ما هو بين ذلك، كما
في الحديث: (الإيمان بضع وسبعون أو
بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا
إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن
الطريق والحياء شعبة من الإيمان)2،
ومن ذلك تركيز القرآن الكريم على
الجانب العقائدي، يفهم منه أنه الأولى
في كل إصلاح يرام أو تغيير يراد، فكم هي

الدراسات

3 - الاقتداء بالقرآن الكريم في

المفتي، وهو يقرر الأحكام الشرعية

معها المواعظ لتقبل عليها النفوس

تجده يذكر الأحكام معللة ومحفوفة

وَأَمَّا نَسْوَا فَالْأُنثَىٰ فَكَأَنَّهَا كَالْإِنثَىٰ غَافِلَةٍ ۚ فَلَا تَحْزَنِي ۚ إِن يَخِشَقْنَا بِهَا فَإِنَّ يَوْمَئِذٍ الْخَشَقَةُ لِلْآنَثَىٰ أَقْبَلَةٌ ۚ وَلَا تَجْزَلِي ۚ إِن يُلْقَىٰ إِلَيْنَا الْبَعْدَىٰ فَاعْلَمِي أَنَّ إِلَيْنَا الْمَصِيرَ ۚ

فَنَزَّلْنَاهَا لِبَنِّهِمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُعَظِّ

أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلهُ مَا سِوَاهُ

4 - معرفة المقصود والمعنى: فمثلا

الآخر، وتذكر مشاهد يوم القيامة كأنها

والغفلة عن اليوم الموعود سلب كل

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا إِذْ هَدَانَا لَهَذَا

2- إذا خالف القرآن حداً من

عاداته علمنا أن وراء ذلك سرّاً ينبغي

القآن في اخباره عن اهلاك الأمم

ف. موضوع واحد في سورة الحاقة ح. ش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (5) يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ

(6) $\frac{d}{dt} \left(\frac{1}{r^2} \right) = -\frac{2}{r^3} \frac{dr}{dt}$

وَقَدْ كَفَرَ يَكْفُرُ

وَلَا يَخَافُ الْعَذَابَ

بِهَا كَرَّمَهُ كَالْمُرِّ الْعَجْزِ لِحِلِّ حَاوِيَةٍ

الحافة: $\delta = 5$ ، فيها يعلمنا القرآن

الكريم أن الأسلوب يقتضي تقديم

5 - استنباط الأحكام (فمثلاً: جاء في القرآن الكريم الفرق بين لمس ومسّ، حيث نجد كلمة مسّ جاءت في المواضع كلّها تدلّ على معنى المباشرة الزوجية، {وَلَمْ يَمَسُّهِنَّ بِشَرْ} مريم: 20 {مَنْ قَبِلَ أَنْ يَمْلَأَ} المجادلة: 3 {لَا يُبَاحُ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَمَسُّوهُنَّ أَوْ نَفَرْتُمْ مِنْهُنَّ فَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَسُّوهُنَّ} البقرة: 236 {وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمَسُّوهُنَّ} البقرة: 237، {يَا أَيُّهَا

ومثال ذلك أيضا: أن من عادة القرآن إطلاق الظلم على الشرك {إِنَّ الشُّرَكَاءَ لِلظَّالِمِ عَصَابَةٌ} لقمان: 13، {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ} وقصصك: نَجْزِيهِ الشُّرَكَاءُ {الْحَقُّ الْمُبِينُ} الأنبياء: 29، ومن هنا تحمل آيات نفي الشِّفاعة المطلقة على المقيدة في قوله تعالى {مَا لِلْحَقِّ الْمُبِينِ

عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا. مثل: لوردوا، لو رحمناهم، لو علم الله فيهم خيرا ...

- ويقول ابن عاشور: (كلمة هؤلاء) في القرآن إذا جاءت مطلقة فالمقصود بها المشركون⁶، وكذلك (يا أيها الناس) المقصود بها مشركو مكة.

- كلمة (عباد) إذا جاءت مضافة إلى الله دلت على المؤمنين، ولا حظ بعضهم الفرق بين عباد وعبيد، فوجد ذكر كلمة عباد في موضع العزة، مثل {فَإِنَّمَا جَاءَ وَعْظٌ لِّأُولَاهُمَا بِعَنَّا عَلَيْهِمُ عِبَادٌ لَّنَا أُولَئِكَ بَاسٌ شَدِيدٌ فَجَاسُوا لِحِلَالِ الْطَّبَارِ وَكَانَ وَعْظٌ مَّفْعُولًا} الإسراء: (5)، بينما تأتي كلمة عبيد للدلالة على الذلة، وقد وردت في عدة مواضع بنفي الظلم عنهم، لأن العادة أن يمارس علي العبيد الظلم والاستغلال {مَا يَصِلُ الْقَوْلُ إِلَيْكَ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ق: (29) حتى سمي بعضهم، ألف العزة وياء الذلة.

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ إِلَّا غَافِرٌ: (18)، وليس كما فهمه بعض الطوائف خطأ، فنفوا وقوع الشفاعة.

ثانيا :عادات القرآن الكريم في المفردات .

1-وعادة القرآن الكريم في استعمال بعض الكلمات له أمثلة :

- قال ابن عيينة: كل (ما أدراك) في القرآن فقد أعلمه وكل (وما يدريك) لم يعلمه³.

- قال ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب، كل (كأس) في القرآن المراد بها الخمر⁴.
- وقال ابن عيينة: كل مطرفي القرآن عذاب.

- وقال ابن عباس: كل (سلطان) في القرآن فهو حجة⁵.

- كلمات (النور والعلم) تدل على الإيمان، وكلمة (الظلمات) تدل على الكفر والجهل

- تعبير القرآن عن الأخوة بالنفس {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الحجرات: (11) {فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّكُمْ لَكُم بِآيَاتِكُمْ غَافِلُونَ} بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {البقرة: (54)، {أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ} البقرة: (85)، {....} وَلَا تَقُولُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا {النساء: (29)، لأن المؤمنين نفس واحدة، وحتى يُقبل المسلمون على تنفيذ الشريعة بإنصاف، ويُعامل كلَّ مسلم أخاه كما يعامل نفسه ويجب لها ما يحب لنفسه.

2 - وعادة القرآن الكريم في الجمع

- الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، مثل {وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ إِذَا أُتُوا بِالْحَبْرِ قَالُوا هَذَا الْحَقُّ الَّذِي آتَيْنَاكَ مِن قَبْلُ} (البقرة: 25)

- الجمع بين الصلاة والزكاة، مثل قوله تعالى : {الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُسْلِمُونَ وَالْمُسْلِمَاتُ وَالْحَمِيدُونَ} البقرة: (3)، ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه : (لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ).⁷

- الجمع بين الأمر بعبادته سبحانه
وبروالدين : {وَأَنِ اعْبُدْنَا مِلًّا بِآبَائِكَ
إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا.....} البقرة: (83)

{وَابْعَثُوا آلَ اللَّهِ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} النساء: (36)
{قُلْ نَعَالُوا أُنْزِلَ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ
عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا} الأنعام: (151) {وَقَضَىٰ
رَبُّكَ أَلَّا نَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا.....} الإسراء: (23) {وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ
وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِطْرًا حَامِنًا أَنْ تُشْكُرَ لِي
وَلَوْلَا الصِّبْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} لقمان: (14).

وهذا أمثلته كثيرة جداً ومن ذلك:
 قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلَيْسَانِكَ لِئُبَشِّرَ
 بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّبًّا} مريم
 97 {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يُفَصِّحُ لِلَّهِ
 هِجَاهُ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)
 وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْنَيْنَا
 لَهُمْ عَمَلَاتِنَا أَلِيمًا} الإسراء: 9 - 10 {قَبَّأَ
 ابْنُ مَرْيَمَ بِأَلِيمًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ
 الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ
 لَهُمْ أَجْرًا كَسَّاءً} الكهف: 2 {قُلْ لِلَّذِينَ
 كَفَرُواْ إِنِ يَنْتَهِوْاْ عَنْهُوَ يُعْزَمَ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ
 وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ}
 الأنفال: 38 {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا
 كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}
 التوبة: 82

- الجمع بين الخاصّ والعام، وإذا
 ذكر الخاصّ بعد العام جاء بأفضل
 أنواعه، مثل: {مَنْ كَانَ عَصِيًّا لِلَّهِ
 وَمَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ فَإِنَّ

وهذا ما جعل ابن باديس رحمه الله
 يستنبط سرّ هذا الاقتران ويرده إلى
 أسباب منها: الله هو الخالق، والوالدان -
 بوضع الله- هما السبب المباشر في
 التخليق.

والله هو المبتدئ بالنعم عن غير
 عمل سابق، وهما يبتدئان بالإحسان
 عن غير إحسان تقدم.

والله يرحم ويلطف وهو الغني عن
 مخلوقاته، وهم الفقراء إليه، وهما
 يكتفان بالرحمة واللطف الولد، وهما
 في غنى عنه، وهو في افتقار إليهما.

والله يوالي إحسانه ولا يطلب
 الجزاء، وهما يبالغان في الإحسان دون
 تحصيل الجزاء.

فلهذه الحالة التي خصهما الله بها
 وأعانهما بالفطرة عليهما، قرن ذكرهما
 بذكره⁸.

- الجمع بين التذارة والبشارة وبين
 الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

الأحزاب: 7

ثالثا: عادة القرآن في مخاطبة
النبي صلى الله عليه وسلم ومخاطبة
أُمَّته

[illegible]

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ زَكَاةً أَيِمَانُكُمُ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمُ وَهُوَ
الْعَلِيمُ الْكَبِيرُ {التَّحْرِيمُ: 1 - 2} بِأَيِّهَا
الَّتَبَّ أَنْتَ اللَّهُ وَلَا نَجْعُ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
(1) وَأَنْتَ مَا بُولِغَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ لِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا {الأحزاب:
1 - 2} فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فَطَرَّتْ اللَّهُ اللَّهُ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ
وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ {الروم:
30 - 31} وَمَا زُكُّونَ بِهِ شَأْنٌ وَمَا نُنَالُهَا
مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا نَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَهُوَ
الْأَرِضُ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ
ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ {

لكن في النهي يخاطب نبيه ولا يذكر الأمة لأن تحذير الأعلى يقتضي تحذير

وصف رجال منها بمعصية ربهم ، وإنما بتنبئهم إلى معاصي الكفار والمنافقين ليأخذوا منهم العبرة، وذلك أسلوب في التربية يتمثل في الإغضاء عن الشخص ليربأ بنفسه أن ينحط مستواه إلى مستوى أولئك، أو على حد قول المثل (ياك أعني واسمعي يا جارة) ⁹

فالمقصود من ذم الكفار أن يكره أحوالهم للمخاطبين من المؤمنين، قال ابن عباس: (كل ما جاء في القرآن من ذم أحوال الكفار فمراد منه أيضا تحذير المسلمين من مثله في الإسلام)

رابعا: عادات القرآن في الإخبار

1 - وعادة القرآن الكريم في الإخبار عن الماضين وحكاية أحوالهم أن يُهم ليعمم، فلا يركّز على ذكر الأسماء والأماكن والتواريخ، بل يوزع القصة ويقتصر على موقع العبرة ليخالف أسلوب القصّاصين ولاستنجد نشاط السامع بذلك التغيير في مشاهد القصة

الأدنى من باب أولى ، وفي الفضائل يشرك معه أمته إكراما له ، ففي التحذير نجد مثلا قوله تعالى : {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بِهِنَ النَّاسَ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْكَافِرِينَ نَجِيًّا} النساء: 105 {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} البقرة: 147 {وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ} القصص: 86 {فَأَجِبْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ مِنَ الصَّاغِبِ الْكُوفَةِ إِنَّهُ نَارِيكَ وَهُوَ مَكْظُومٌ} القلم: 48

وفي الفضائل نقراً مثلا : {رَبُّ الْمُنِفِينَ يُؤْمِنُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُ الْعُرُثَانَا وَالْأَحْزَابُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالْمُنِفِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَغْفِرُ مَا كَفَرُوا بِهِمْ وَهُمْ كَانُوا بِهَتَاكُنَا وَإِنَّا مُبِينَا} الأحزاب: 57 - 58

2 - ومن عادة القرآن في مخاطبة هذه الأمة أن يسكت ويعرض عن

بين سورة وأخرى، فمثلاورد (ادخلوا) ورد (اسكنوا) في قوله تعالى: {وَأَدْخُلُوا أَرْضَكُمْ وَأَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغِيًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِر لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ وَبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ} البقرة: 58 {وَأَدْخُلُوا لَكُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِر لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ وَبَشِّرِ الْمُتَّقِينَ} الأعراف: 161 وذلك تفنن في الإخبار لأن القولين قبيلا كلاهما جميعا

2 - إضافة ما هو من الخير إلى الله تعالى، وما هو غير ذلك فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى تأدبا ، وإن كان كل من عند الله، وأمثلة هذا {أَمَّا السَّوْبَكَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاجِدَ بَنٍ يَعْمَلُونَ فِيهَا الْبُرَّ فَأَرْسَلْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ بِأَعْيُنِ كُلِّ سَوْبَكَةٍ غَضَبًا} الكهف: 79 {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف: 82، فانظر كيف أنه في إجابة السفينة نسيه إلى الخضر (فأردت أن أعيها) وفي استخراج الغلامين كنزهما (أراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) {وَأَنَّا لَا نَفْرِي أَشَرُّ أَرَادَ لِمَنْ فِيهِ الْأَرْضُ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشِيًا} الجن: 10 {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُهُ وَبَشِّرِ (79) وَإِنَّا مَرْضِيٌّ فَهُوَ بِهِمْ رَءُوفٌ (80) وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ لَكُمْ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ} الشعراء: 79 - 82، حيث في الشرأضمر الفاعل وفي الخير أظهره (أراد بهم ربههم رشدا)، وفي الإطعام والإسقاء والإماتة والإحياء ومغفرة الذنب ينسب ذلك إلى الله،

الْكَذَّابِ وَالْخَمَمَةِ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا { النساء: 113 } وَأَنْ أَعْظَمَ الْإِفْتِرَاءَ الشَّرِكِ { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا { النساء: 48 } } أَلَمْ أَصْغَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ آيَاتِنَا إِنَّا نَحْنُ لَنَزَّكُمُ لَنَقُولَنَّ قَوْلًا عَظِيمًا { الإسراء: 40 } وَأَنْ أَعْظَمَ الْإِيْدَاءَ هُوَ إِذَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسَانَسِينَ لِكَبِشٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ وَكَايَةٌ لِلنَّبِيِّ فِيهِ سَلَامٌ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَلِي مِنْ الْكَفِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَكْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذِنُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا

وفي المرض لا ينسبه، بل يقول (وإذا مرضت)، مع أنه بقدر الله، وعادة القرآن في الأكثر جارية بأن ما كان من الثواب والرحمة فإن الله يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه، قال تعالى : { كَذَّبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } { الأنعام 54 } وقال : { كَذَّبَ عَنْكُمُ الرُّسُلَ } (البقرة : 178) { كَذَّبَ عَنْكُمُ الرُّسُلَ } (البقرة 183).

3- قال ابن كثير: كل سورة افتتحت بالحروف -المقطعة- فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء.¹⁰

4 - في الإخبار عن شيء أنه عظيم، نجد أنه تكرر في القرآن الكريم بيان أن أفضل النعم هو الهداية { وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتَهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ

{يَوْمَ يَلْعَنُ اللَّهُ الرَّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا
أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِإِذِكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ} المائدة: 109

أَنْ تَنْجِلُوهُمُ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَغْدِهِ أَبَدًا
إِنَّ مِنْهُمْ لَفِتْرَةً كَانَتْ مِنْهُ إِلَّا عَذَابَنَا
الأحزاب: 53.

خامسا: عادات القرآن في التشريع

وأما عادة القرآن في التشريع وبيان
تفاصيل الأحكام فتتميز بما يلي :

1 - ترك تحديد المعاني الشرعية
وتفاصيلها ، ولكن تأصيل أصولها
 وإحالة ما وراء ذلك إلى متعارف أهل
اللسان من معرفة حقائقها وتمييزها
 عما يشتبه بها (فالسرقه مثلا :معروفة
 عند العرب مميزة عن الغارة والغصب
 والاختلاس، وكذلك المؤاخذه بها ترجع
 إلى اعتبار الشيء المسروق ممّا يشعّ به
مُعْظَمُ النَّاسِ).¹¹

2 - ربط الأحكام بالعقائد والمواظ
الدينية، وإذا ذكرنا نوعا من التشريعات
 والتكاليف أتبعها بذكر الإلهيات وشرح
 أحوال الأنبياء وذكر يوم القيامة، كما
 قاله الرازي عند تفسير قوله تعالى

3 - تفصيل الأحكام التي يخشى
 منها التنازع وضياح الحقوق، ومثاله
 تفصيل القرآن لأنصبة الموارث وبيان
 المصارف التي تستحق الزكاة .

4 - الإحالة إما إلى نصوص قرآنية
 أخرى أو إلى السنة لتفصيل وتبيين
 وهو أكثر الأحكام، ومثال الإحالة إلى
 القرآن، ما جاء من إحالات على سورة
 الأنعام لأنها كما روي السورة الوحيدة
 التي نزلت مرة واحدة .

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا
حَرَّمْنَا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ
وَلَمْ كُنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}
النحل: 118، فالمراد من قبل في هذه
 الآية ما ذكر في سورة الأنعام {وَعَلَى
 الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
 وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُكُومَهُمَا

إِلَّا مَا خَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْكُوفَا أَوْ
مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مِّمَّا كَزَبْنَا لَهُمْ
بِغَيْبِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {الأنعام: 146
- (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِيهِ الْكِتَابَ
أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُخْفَرُ
بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا وَلَا تَقْعُوبُوا مَعَهُمْ
حَتَّى يَكُونُوا فِيهِ جَمِيعٌ غَيْرِهِ إِنَّا نَزَّلْنَا
إِنَّمَا مَثَلُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ جَمِيعٌ مِّنَ الْغَائِبِينَ
وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا {

النساء: 140، المقصود بـ (في الكتاب)
هو قوله تعالى: {وَإِنَّمَا رَأَيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ
يَكُونُونَ فِيهِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى
يَكُونُوا فِيهِ جَمِيعٌ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُرِيتُكَ
الشُّجْرَانُ فَلَا تَقْعُوبَ بَعْدَ الْمُنْكَرِ
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ {الأنعام: 68
- {إِنَّمَا الْمَلَائِكَةُ صَافُونَ أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ
أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ بَيْتَهُ إِلَّا مَا
يُنَادِي عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِمَّا السَّبِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ
إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ مَا يُبَيِّنُ {المائدة: 1 المقصود
بها {قُلْ لَا أَجِدُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَكْرَمًا

سيقول الذين أشركوا في
الأنعام: 148، وفي النحل 35 (وقال
الذين أشركوا)

5 - التكنية دون التصريح ترقية
لحس الذوق ولزوم الأدب عند
المسلمين.

قال ابن عباس: (الدخول والتغشي
والإفضاء والمباشرة والرفث واللمس
هذا الجماع غير أن الله حي كريم يكتفي
بما شاء عما شاء).¹²

وجاء عنه في تفسير قوله تعالى:
{وَقَالُوا لِلَّذِينَ هُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا
قَالُوا أَنْزَلْنَاهُ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ أَنْزَلَتْ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَيْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَاللَّهُ نَزَّلَهُمْ { فصلت: 21، أن المراد

مع القوم الظالمين {الأنعام: 68
- {إِنَّمَا الْمَلَائِكَةُ صَافُونَ أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ
أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ بَيْتَهُ إِلَّا مَا
يُنَادِي عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِمَّا السَّبِّ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ
إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ مَا يُبَيِّنُ {المائدة: 1 المقصود
بها {قُلْ لَا أَجِدُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَكْرَمًا

الحول إلا حوله ، جاء هذا المعنى في عدة آيات، منها: {فَأَعْبَدْهُ وَنُوحِ إِلَهُهُ} {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} {رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْسِكُنْهُ وَتَحَبَّأْ}، وخير من نبه إلى هذا الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث أشار إليه في عدة مواضع .

جاء في أضواء البيان: (من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، وتكون في نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول، وقدمنا أيضاً في ترجمته أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون الغالب في القرآن إرادة معنى معين في اللفظ، مع تكرار ذلك اللفظ في القرآن، فكون ذلك المعنى هو المراد من اللفظ في الغالب، يدل على أنه هو المراد في محل النزاع؛ لدلالة غلبة إرادته في القرآن بذلك اللفظ، وذكرنا له بعض الأمثلة في الترجمة.¹⁴

بشهادة الجلود شهادة الفروج ؛ لأنها لا تخلو عن الجلود ، والله حيي يكتني، وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله، {وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} قالوا : ما نشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً وأجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسيطها¹³ وكذلك تقنية قضاء الحاجة بالغائط، والغائط هو المكان المنخفض الذي كانوا يجعلونه للتبرز، وهذا الغرض منه تأديب المسلمين في التعامل .

سادساً: عادات القرآن في تكرير بعض المعاني بأسلوب مغاير

ومثال ذلك: المعنى المتضمن في الفاتحة في قوله تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وهو أفراد الله تعالى بالعبادة مع الاستعانة به والتوكل عليه، أو التبرؤ من عبادة سواه ومن

يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل
يجب الرجوع إليه.

وأما نوع البيان الثاني المذكور،
فإيضاحه: أن لفظ الزينة يكثر تكرره
في القرآن العظيم مراداً به الزينة
الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد

بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين
بها؛ كقوله تعالى: {بِأَيْدِيهِمْ يُخَوِّفُونَ
زَيْنَتَهُمْ عَنْ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}

الأعراف: 31، وقوله تعالى: الأعراف:

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالنَّصَةِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلِّكَ نُفَصِّلُ لَكَ عَائِدَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: 32]، وقوله

تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوَهُمْ إِنَّهُمْ أَكْفَرُونَ} [الكهف: 7]، وقوله تعالى: {وَمَا أَوْزِنُكُمْ مِنْ شَيْءٍ

فَمَا نَعْلَمُ الْكِبَالَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ

وإذا عرفت ذلك، فاعلم أن هاذين
التّوعين من أنواع البيان الذين
ذكرناهما في ترجمة هذا الكتاب
المبارك، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة
كلاهما موجود في هذه الآية، التي نحن
بصددّها.

أما الأول منهما، فبيان أنه قول من
قال في معنى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا
ظَاهَرَ مِنْهَا} النور 31، أن المراد بالزينة:

الوجه والكفان مثلاً، توجد في الآية
قرينة تدل على عدم صحة هذا القول،

وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما
تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل
خلقتها: كالحلى، والحلل. فتفسير الزينة

ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا
يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب

الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من
قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان

خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك
قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا

إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظاهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة؛ كالكل والخضاب، ونحو ذلك.¹⁵

خَبَّرَ وَأَبْقَاهُ أَفْلا نَعْقُلُونَ { القصص: 60،
وقوله تعالى: {إِنَّا زَيْنًا أَلَسْنَا بِزِينَةٍ
الْخَوَالِجِبِ { الصافات: 6، فلفظ الزينة
في هذه الآيات كلها يراد به ما يزين به
الشئ وهو ليس من أصل خلقته، كما
ترى. وكون هذا المعنى هو الغالب في
لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن
لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا
المعنى، الذي غلبت إرادته في القرآن
العظيم، وهو المعروف في كلام العرب؛
كقول الشاعر:

يأخذن زينتهن أحسن ما ترى
وإذا عطلن فهن خير عواطل
وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية
بالوجه والكفين، فيه نظر.

وإذا علمت أن المراد بالزينة في
القرآن ما يزين به مما هو خارج عن
أصل الخلقة، وأن من فسروها من
العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال
بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر

الهوامش:

1/ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، سنة 1984م، 1/42.

2 / متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري ، رقم الحديث :9 ومسلم ، رقم الحديث :35

3 / صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة:

الأولى، 1422هـ، 3/45.

4 / محمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ) جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م، 21/36

5 / عبد الرزاق بن همام الصنعاني (المتوفى: 211هـ)، تفسير عبد الرزاق، الناشر: دار الكتب العلمية،

دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1419هـ، 3/328.

6 / الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 9/171

7 / البخاري، رقم: 1400 ومسلم، رقم:19

8 / عبد الحميد بن باديس (المتوفى: 1359هـ)، تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1995م، ص63.

9 / الطاهر بن عاشور ، المرجع السابق، 34/73.

10 / ابن كثير، تفسير القرآن العظيم تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار

15/ انظر أضواء البيان للشنقيطي،
دار إحياء التراث العربي، بيروت،
لبنان، دت 4/102).

طبعة للنشر والتوزيع، الطبعة:
الثانية 1420 هـ - 1999 م، 1/160

11 / ابن عاشور، التحرير والتنوير،
الدار التونسية للنشر، سنة 1984
6/191.

12/ أبوبكر البهقي، السنن الكبرى،
تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب
العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة:
الثالثة، 1424 هـ - 2003 م، 1/199.

13 / شهاب الدين الألوسي (المتوفى:
1270 هـ)، روح المعاني في تفسير
القرآن العظيم والسبع المثاني،
تحعلي عبد الباري عطية، دار الكتب
العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى،
1415 هـ، 12/367.

14/ محمد الأمين الجكني الشنقيطي
(المتوفى: 1393 هـ)، أضواء البيان في
إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت
م، 5/515.